— ١ —

الانسان الكامل عند الصوفية

عبد اللطيف محمد أحمد القيسى

الإنسان الكامل عند الصوفية هو ذلك الإنسان الذى بلغ أجل المراتب ، وتحقق بالتجليات الإلهية وتسامى بهذه التجليات حتى بلغ أرقى ما يصل إليه الصوفى ، وأرفع ما يتشوق إليه ، أى وصل إلى الفناء فى الله .

وهذا الاصطلاح عند الصوفية إنما هو اصطلاح فلسفى يعنون به كمال المعرفة بالنفس وبالله ، وما يستتبعه هذا من كمال التحقق بالأسماء والصفات الإلهية المتجلية فى الإنسان . وحين يتم للصوفى كمال المعرفة إنما يسير فى طريقه نحو محبوبه ، وحالما يجتمع الحب والمعرفة تتضح الغاية أمامه ، ويستنير طريقه ، ومن هنا يكون أصلا لهذه الكمال وتلك الدرجة الرفيعة السامية .

ويعتمد القول بالإنسان الكامل على القول بالحقيقة المحمدية الأزلية ، وهى تختلف عن الصورة المحمدية . وأصحاب هذه النظرية يقررون أن ثمة حقيقة روحية أزلية سابقة على الخلق ، خلقها الله على صورته ، ومنها صاغ الكون ، فهى منبثة فى جميع أجزائه . ولهذه الحقيقة (أو الروح المحمدى) قدرة على التصور بكل صورة ، وقد ظهرت فى صور جميع الأنبياء منذ آدم عليه السلام حتى النبى محمد ، بل إنها ما زالت تظهر فى صور الأولياء والكمل من بنى البشر حتى الأبد ، فهى حقيقة أزلية أبدية ، تظهر فى كل عصر بما يتناسب وذلك العصر . والإنسان الكامل إنما هو مظهر من مظاهر هذه الحقيقة ، ويمكن القول بأنها جوهره القائم فيه وما هو إلا صورتها الخارجية .

ولما كان الله قد اختار هذه الحقيقة كى يرى فيها ذاته ، فهى من ثم تعتبر أكمل مظهر للحق ، إذ بها ترى جميع صفاته وأسمائه ، فهى مرآة فى الحق . ومن هنا كان سعى الصوفى إلى بلوغها إنما سعى فى طريق الحق ، لأن هذه الحقيقة تعتبر أكمل مظهر له ، وعليها قد تجلى بجميع صفاته وأسمائه .

ولقد أطلق الصوفية على هذه الحقيقة ألفاظا شتى وألقابا عديدة ، وكلها تدور

حول مالها من وظائف ، فهى النور المحمدى الذى يقبس من مشكاته كل صوفى ، ومن ثم فهى مصدر ذلك العالم الباطنى الذى يتحقق به كل صوفى . كما أنها « حقيقة الحقائق » التى هى أصل الكون ، ومادة العالم ، إذ منها الله أوجد الخلق . وهى حين تتجه إلى الإنسان كى تقيم من عوج البشر ، وتصلح مرض نفوسهم إنما هى « الإنسان الكامل » ، وهى أيضاً « القطب » وإنسان عين الوجود ، والروح المخلوق به . . . الخ

ولهذا الإنسان الكامل وظائف كثيرة متعددة ، فهو جامع للعوالم الإلهية والكونية ، وذو هيمنة وإرادة فى العالم العلوى والدنيوى . ومن وظائفه الدينية والميتافيزيقية والدنيويه ، أنه وسط بين الحق والخلق ، كما أنه مبدأ جامع لحقيقتين : الحق والخلق . هذا إلى جانب أنه مصدر كل فرد وإشعاع يشعر به الصوفى فى قلبه ، وبالإضافة إلى كل هذا وذاك فهو كفيل برسالة إصلاحية بين الناس ، يكمل فيها رسالات الأنبياء والمرسلين .

* * *

هذه هى نظرية الإنسان الكامل ، وهى فى جوهرها نظرية الحقيقة المحمدية التى ظهرت عند كثير من الصوفية . وهى أول مخلوق صدر عن الله تعالى ، كما أنها أصل لكل مخلوق ومادة الأكوان جميعا ، هذا إلى جانب كونها الحقيقة الباطنة التى تجلت فى صور الأنبياء والأولياء الكاملين .

ولقد كان الإسماعيلية هم أول من أستحدث القول بقدم الحقيقة المحمدية ، ثم لم يلبث أن تابعهم فى ذلك أهل السنة . غير أن الإسماعيلية ذهبوا إلى أنها باقية بعد النبى فما زالت تظهر فى صورة على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) وفى صور آل بيته ، وعرف هذا عندهم بالإمام المعصوم أما أهل السنة فهم يقفون بالحقيقة المحمدية عند صورة النبى عليه السلام ، ولا يتعدون عن ذلك .

أما الصوفية فهم يذهبون إلى أزلية تلك الحقيقة كما أنهم يذهبون إلى بقائها متسلسلة فى الظهور فى صور الكاملين من الأولياء تظهر فى كل عصر حسب ما يقتضيه ذلك العصر .

ولقد ذهب الحلاج إلى نظرية فى النور المحمدى ، أشار فيها إلى قدم هذا النور وأسبقيته ، كما أنه المصدر الذى استمد منه الأنبياء والأولياء علومهم بل إن علومهم لا تعدو أن تكون قطرة من فيض عليه . فمن هذا النور المحمدى برزت أنوار النبوات وتلألأ سناه فى قلوب الواصلين الكاملين .

وما عناه الحلاج بالنور المحمدى هو ما يذهب إليه سائر الصوفية فى الحقيقة المحمدية وما أطلق عليه فيما بعد الإنسان الكامل ، أو آدم الحقيقى الذى خلقه الله على صورته فذات الحق تجلت فى صورة آدم ، وعلى هذا الأساس يقوم مذهب الحلاج فى الحلول القائل بامتزاج الطبيعتين الإلهية والبشرية ، كما يمتزج الماء بالخمر .

كما أن أبا يزيد البسطامى تحدث عن ذلك الإنسان الذى بعد أن يحصل له التجلى ببعض الأسماء الإلهية ، يبلغ إلى الفناء فى الله ويصير (الكامل التام) . ومن الممكن أن نعتبر هذا (الكامل التام) الذى عناه البسطامى ، هو الإنسان الكامل الذى نعنيه.

هذا إلى جانب أن أبا حامد الغزالى قد أشار فى كتابه « مشكاة الأنوار » إلى شخص أسماه « بالمطاع له درجة الخلافة الإلهية والنيابة عن الله ، فله نسب بالحق وقدرة تدبير فى الخلق . وهو قريب الشبه بما أطلق عليه « محيى الدين بن عربى » الإنسان الكامل .

ولقد توسع هذا الأخير فى نظريته فى الإنسان ، وجاءت أكثر شمولا واستيعابا بصورة لم تسبق عند أحد غيره من قبل ، ولم يبلغها أحد فيمن أتى من بعد وهى وإن ظهرت فى كثير من مؤلفات لاحقيه إلا أن ذلك ما هو إلا ترديد لما قد سبق إليه ابن عربى . وكان من أشهر القائلين بذلك فى العصر المتأخر هو عبد الكريم الجيلى فوضع كتابا أسماه « الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل » وهو بهذا يعد من كبر شارحى مذهب بن عربى وتابعيه .

* * *

وحين تناول كثير من الباحثين والمستشرقين دراسة هذه النظرية اختلفوا فيما بينهم وآثر كل منهم أن ينسبها إلى مصدر قد تخصص فيه ، أو أفاض فى دراسته فمنهم من درسها وردها إلى مصدر يونانى ، وبعضهم أرجعها إلى أصول مسيحية ، وآثر فريق أن ينسبها إما إلى أثر يهودى أو فارسى .

وهى وإن كانت ذات أصول يونانية فالحقيقة المحمدية أشبه بما أطلق عليه الرواقية بالعقل الكامن الذى يقابله العقل الظاهر فحقيقة الحقائق أو الحقيقة المحمدية هى شبيهة بالعقل الكامن . ومظهرها أو الإنسان الكامل الذى يتجلى فى صورة « الولى الكامل » هو أشبه بالعقل الظاهر .

فكل هذه آراء الباحثين والمستشرقين ، ممن ذهبوا فى رد هذه النظرية الصوفية إلى مصادر شتى ومنابع عدة ، وكلها تحمل وجهات نظر من قالوا بها .

كما أن الحقيقة المحمدية تشبه من وجه آخر العقل Nous عند أفلوطين : إذ أن هذا

العقل هو أول شيء فاض عن الواحد الحق ، ثم منه صدرت بقية الموجودات . وكذلك الأمر فى الحقيقة المحمدية التى تعتبر أول خلق الله ، وعلة المخلوقات ، ومادة الكون.

ثم إن نيكلسون — المستشرق الانجليزى — يذهب فى رد هذه النظرية إلى أن ثمة نغمة مسيحية فى نظرية الحلاج فى النور المحمدى ، وفى امتزاج الطبيعتين : الإلهية والبشرية . هذا وإن البعض يدعى أن ثمة صلة قوية بين نظرية الحلاج فى النور المحمدى ، وبين الأثر الإسرائيلى القائل بأن الله قد خلق آدم على صورته ؛ فالحلاج انما وضع محمدا أن مكان آدم . !

وثمة آراء أخرى تذهب إلى مدى المطابقة بين الإنسان الكامل عند صوفية المسلمين وبين «آدم قدموه» عند القبالة ، والإنسان القديم عند أصحاب مانى . والإنسان الأول عند الجيومدث من المزدكية . وقد جعلت نقطة بداية هذه النظرة من أصل آرى.

واعتبر أيضا فريق من الباحثين أن هذه النظرية انما هى تطور لنظرية النبوة فى الإسلام ، ودليل على ماخالطها من نظريات غنوصية وأن ثمة ارتباط بين هذه النظرية وبين غنوص الإمامة عند الشيعة ، وغنوص الأمم السابقة على الإسلام من يونان وفرس .

ويعتبر نيكلسون أيضاً أن ثمة تطابق بين التعبيرات والنسب التى يخلعها الصوفية على الحقيقة المحمدية وبين مايخلعه وينسبه كل من القديس يوحنا والقديس بولس وعلماء اللاهوت المتأخرين على مؤسس المسيحية .

ومما لاشك فيه أن ثمة تداخل بين عناصر عديدة قد حدثت ، بعضها إسلامى وبعضها الآخر غريب عن الإسلام ، فامتزج كلاهما وأثر أحدهما فى الآخر ، وليس هذا فى نظرية الإنسان الكامل فحسب ولكن فى نظريات أخرى عديدة قال بها بعض الصوفية إلا أن هذا لا يعنى أن كل من قال بنظرية فى الإنسان الكامل قد تأدى به الأمر إلى الشطح والأغراب ، ولهذا سوف أعرض فى مقالات أخر لرأيين متعارضين ، أو نظرتين مختلفتين فى الإنسان الكامل ، إلا أن ثمة أوجه من الاتفاق حينا ، ثم هوة سحيقة من الاختلاف أحيانا كثيرة . هاتان النظرتان سأعرضهما عن كل من عبد الكريم الجيلى المتوفى ١٤١٧ م ، والفيلسوف محمد اقبال ، شاعر الإسلام المتوفى ١٩٣٨ وسوف يتضح لنا مدى الخلاف بين وجهتى النظر التصوفية التى داه بها الجيلى ، والتى هو مدين فيها للشيخ محيى الدين بن عربى ، وبين ماذهب إليه اقبال فى فلسفته ؟